حيوانات وردت في آيات

(٦)

غُرَاب قَابِيلَ

أحمد سويلم

مكتبة العبيكان

obeikandl.com

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

لجنة التأليف والترجمة بمكتبة العبيكان

غراب قابيل. -ط٢. - الرياض، ١٤٢٧هـ

٢٠ ص ؛ ١٧×٢٢سم (حيوانات وردت في آيات؛ ٦)

ردمك: ١-٩٣٤-٤٠-٩٩٦٠

١-قصص القرآن. ٢- قصص الأطفال. أ - العنوان

ب- السلسلة

ديوي ٢٢٩,٥ ١٤٢٧/٨٦٧

ردمك: ١-٩٣٤-٤٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٤٢٧/٨٦٧

الطبعة الثانية

١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

مكتبات ودور العبيكان Obeikan

Publishers & Booksellers

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمـــز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿...قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا

الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ...﴾

[المائدة: ٣١]

obeikandl.com

obeikandl.com

سُمِّيَ بالغُراب لأنَّ لونَه أسودُ. ويضرَبُ به المَثَلُ في البُطْء ـ والله أعلم بصحة ذلك ـ.

وقصَّتَنَا عن غُراب قابيلَ تُعْطينَا درسًا عظيمًا، لا يزالُ الإنسانُ يعملُ به، ويحفظُه على مَدَى الزَّمان، وإلى أنْ يشاءَ اللهُ.

لقدْ قدَّر الله أن يُخْلَقَ آدمُ وذُرِّيَّتُه ليسكُنُوا الأرْضَ ويُعَمِّروها، فخلَقَ اللهُ آدمَ أولاً، وأمرَ الملائكةَ أنْ يَسجدُوا لَه، فسجَدُوا جميعًا إلا إبليسَ أبى واستكبرَ، وخالفَ أمرَ ربِّه، وكانَ من الكَافرينَ.

ثُم خَلقَ اللهُ حَوَّاءَ من ضلْع آدمَ، وأمرَهُمَا أن يسكُنَا الجنةَ، ويذكُرَا نعمةَ اللَّه عَلَيهمَا. لكنَّ إبليسَ احتالَ عَلَيْهما، فأخْطَآ حينَما خالفَا أمْرَ اللَّه ألا يقربَا شَجرةً معيَّنةً من أشجَارِ الجَنَّة، فأخرَجَهُما اللهُ من جَنَّته، وسَلَبَهُما نعمَتَه، وناداهُما جلَّ وعَلا:

﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٢، ٢٣]

ويندمُ آدَمُ وزَوجتُه علَى ما ارتكبَا في حقِّ اللّه، فتـابَ اللهُ عَلَيهما، وغَفرَ لَهُما، وهيَّأَ لَهُمَا ولذُرِّيَّتهما طَريقين، طَريقَ الصَّلاح والنَّعيم الخَالص، وطَريقَ الضَّـلالِ والخُسْـرانِ. وحَذَّرَ اللهُ آدمَ وذرِّيَّـتَه من الـشَّيطَانِ وَوسْـوَسَـتِـه في القُلوبِ.

وكانَ على آدمَ وزوجتَـه وذرِّيَّته أنْ يقيمُوا فَـوقَ الأرْض نظامًا يُهَيِّئُ لَهم الحياةَ. وتبـدأُ ذريةُ آدمَ حينَما وضَعتْ حَـوَّاءُ تَوأمَين: قَابيلَ وأختَه إقلـيمَا في بَطْن واحدة، ثُمَّ هابيلَ وأختَه لبودَا في بَطْنٍ أخرَى.

وكَبرَ الإخوةُ جميعًا، الولدَان يُسـاعدَان أباهُما في إحضَار الطَّعام وصَيْد الحَيوانِ، والبنتَان تساعدَان الأمَّ في أعمَالِ البَيْت.

وكَـثيـرًا مـا كـانَ الولَدان يجدَان فـراغًـا يلعـبَان فـيـه معًـا، ويجـريَان، ويضحكَان في مودَّة، بَلْ كانَا يستحدثَان ألعابًا فيهَا قسوةٌ وخشونةٌ.

لكنَّ هابيلَ كـانَ مختـلفًا عـن قابيلَ في طَبـائعه، فـقدْ كـانَ الأولُ طيبَ القَلْب، رقـيقًـا، لطيـفًا، وكـانَ يجلسُ أحـيـانًا وحيـدًا يتـأمَّلُ جمـالَ الكَون والطَّبيعة، كَمَا كانَ يسعَدُ وهُوَ يَرَى حيوانًا يعطفُ على حَيوان آخَرَ، أو طائرًا يَحْنُو على صغَاره.

يُروَى أنَّ هابيلَ دخلَ علَى أبِيه وهوَ شَاردُ الذِّهْن، فبادَرَه أبُوه يسأَلُه عَمَّا يحيِّرُه، فيقولُ:

- ألستَ مَعي - يا أبَت - أنَّ الحيوانَ والطَّيرَ أكثَرُ عددًا منَّا نحنُ البشرَ؟!

وكتمَها الأبُ في نَفسه، وصلَّ السؤالُ حائرًا، حتَّى أوحَى اللهُ إلَيْه أن زَوِّجْ ولدَك الأوَّلَ قابيلَ بأخْته الأخْرَى لَبُودا، ووَلَدَكَ الثَّانيَ بأخْتِه الأولَى إقليما.

كانَ الأولادُ صغارًا، وفهمَ آدمُ أنَّ هَذه هيَ الطريقةُ التي تكثُرُ بَها ذريتُه، فعزمَ على تَحْقيقهَا في الوَقْت المَناسب.

أمَّا قابيلُ فقدْ كَانَ ذَا طبَاع شَرسَة، عَنيفًا في سُلوكه معَ أخيه، وكَثيرًا مَا كانَ يعودُ هابيلُ من لَعبه معَ أخيه حَزينًا أو باكيًا، أو مصابًا بجُرْح، لكنَّه لطيبَة قَلبه لم يكُنْ يشكُو أخَاه إلى أبيه؛ فهوَ يَرَى أنَّ هذَا لا يليقُ، وأنَّه إذَا شَكاه فرُبَّما يزيدُ ذلكَ أخَاه عُنفًا وقسوةً علَيه.

وبالرَّغْم من حرْص هَابيلَ علَى مشَاعر أخيه لَمْ يَكُن قابيلُ يحسبُ حسابًا لذلكَ أو يقدِّرُه، فهوَ يحبُّ نفسَه فقَطْ، ويريدُ أن يمتلكَ كُلَّ شَيء وحدَه

وذاتَ مرةً خرجَ الأخوَان إلى الخَلاء، وجلسَا تحتَ ظلِّ إحدَى الأشجَار. قالَ هابيلُ: يا أخي، إن قَلبي يحبُّك؛ لأنَّكَ أخي، وأتمنَّى أن تحبَّني مثلَمَا أحبُّك. ويجيبُ قابيلُ في عُنْف: ومَن قالَ إنَّني لا أحبُّكَ؟!

ويصمتُ هابيلُ؛ لأنَّه لا يرَى فيمَا يقولُه أخُوه صدقًا أو إخلاصًا.

ويقطعُ قابيلُ الصَّمْتَ قائلاً: هيَّا نلعبْ يا أخي، وسأريكَ كيفَ أحبُّكَ أكثرَ ممَّا تحبُّني.

وينطلقُ الأخوَان حتَّى يَصلا إلى شَجَرة تُوت عَجُوز، فيحسُّ كلٌّ منهُما أنَّه يريدُ أن يذوقَ هذَا التوتَ. لكنْ تُرَى مَن الذي يصعَدُ الشجرةَ ويَهزُّ غُصُونَها؟

ينطلقُ هابيلُ إلى الشجَرة، فيلحقُ به قابيلُ ممسِكًا به متوعدًا:

- دَعْني أصعدْ أنَا.

صَمَتَ هابيلُ، ونظرَ في عينَيْ أخيه، ثُمَّ قالَ في سَماحَة: تَفضَّلْ يا أخي، اصْعَدْ أنتَ، وأنا أجمعُ التوتَ.

ويبدُو أنَّ قابيلَ لم تُعجبْه طريقةُ أخيه، فأمسَكَ به، وقالَ:

- كلاَّ، بلْ نَقترعُ على ذلكَ.

وبسُرعَة خاطفَة التقطَ قابيلُ حصَاةً صغيرةً من الأرْض، ثُم قَبضَ عليهَا بكِلتَا رَاحتَيْه، ثم فصَلَ يَدَيْه مطبقًا أصابعَ كُلِّ يَد، ثُم سألَ هابيلَ:

اختَرْ أنتَ إحدَى القبضَتَيْن. فإذَا كانتْ فيها الحَصَاةُ فأنتَ الذي تصعدُ، وإذَا كانتْ خاليةً أصعدُ أنَا.

ابتسمَ هابيلُ، وأشارَ إلى يَدِه اليُمْنَى، فكانَتْ فيهَا الحَصَاةُ.

وهُنَا امتعضَ قابيلُ، ممَّا جعلَ هابيلَ يقولُ لَه: لا فَرقَ، إذَا أردتَ أنْ تصعدَ أنتَ فاصعَدْ.

لكنَّ قابيلَ سُرعانَ ما تظاهرَ بعدَمِ المُبَالاة قائلاً: بلْ اصعدْ.

ويصعدُ هابيلُ شجرةَ التُّوت، ويهزُّ غُصُونَها، ويَجْمَعُ قابيلُ الثِّمار، بَل يأكلُ بعضَها في أثْنَاء الجَمْع، لكن فجأةً تنزلقُ قدمُ هابيلَ، ويكادُ يَهْوِي لَولا أنْ تعلَّقَتْ يداه بغُصْن من الشَّجَرة، ويستنجدُ بأخيه قابيلَ فمَا يُنجدُه، ثُم يقعُ عَلى الأرْضِ، وتزدادُ بعدَ ذَلكَ الفَجْوةُ بينَه وبَينَ أخيه.

وكَمَا كانَ هابيلُ مختلفًا عَن قابيلَ كانتْ إقليمَا تَوأمُ قابيلَ مختلفةً عَن لبودَا تَوأم هابيلَ.

وذاتَ صَباحٍ تجتمعُ الأسرةُ، ويعلنُ الأبُ:

أنتُمْ أولادي، وقد كبرتمُ الآنَ، ولا بُدَّ أن تتكاثَرُوا، وتعمُرُوا الأرضَ. وقَد أوحَى اللهُ إليَّ أن يتزوَّجَ هابيلُ من إقليما، ويتزوجَ قابيلُ من لبودا.

وتعقدُ الدَّهشَةُ وجهَ قابيلَ، فيتوقفُ عن الطَّعام.

ويُلاحظُ الأبُ هَذه الدهشةَ المفاجئةَ، فيسألُ ولَدَه عَن سَببها فيجيبُه:

- أنا لا أوافقُ على هذه القِسْمة يا أبَت.

ويفهمُ الأبُ، وتفهمُ الأمُّ السببَ في عَدم نُزول قابيلَ علَى إرادَة الأب، فلبودا - أختُ هابيلَ - أقلُّ جمالاً من إقليما أختِه، فلماذا يرضَى بمَن هيَ أقلُّ جَمَالاً؟! ولماذَا لا يتزوَّجُ هُو من أخْته وتوأمِه؟!

ووقعَ الجَميعُ في حَيْرَةٍ.

لكنْ حرصًا من الأَب علَى تَرابُط الأسْرَة طلَبَ من الجَميع أن ينصرفُوا إلا قابيلَ. وتحاوَرَ الأبُ معَ ولَده بعيدًا عَن الجَميع.

يا ولَدي هذَا أمرُ اللَّه، أنْ يتزوَّجَ كلٌّ منكُما أختَ الآخَر.

صرخَ قابيلُ: لكنَّ أخْتي وتوأَمي أجملُ من أخْتِ هابيلَ. ألستُ أوْلَى

بمَنْ وُلدتْ مَعي في بَطن واحدَة؟

مـاذَا يفعـلُ الأبُ؟ إنَّه لا يستطـيعُ أنْ ينحازَ إلـى جَانب أحَـدهمـا على حسَاب الآخَر؛ ولا يستطيعُ أيضًا أنْ يخالفَ أمرَ اللَّه.

ويرفَعُ يدَه إلى السَّماء؛ فلعلَّ اللهَ أنْ يلهمَه خَلاصًا من حَيْرته.

وهَاهُوَ ذَا يدعُو وَلَدَيْه، ويطلبُ منهُمَا أن يقدِّمَ كلٌّ منهمَا قُربَانًا إلى اللهِ، فمَن تَقَبَّلَ اللهُ منه قُربانَه كانَ أحقَّ بمَنْ يَشْتَهي ويريدُ.

ويركبُ قابيلُ غُرورَه وكبرياءَه، ويوافقُ علَى ذلكَ.

أمَّا هابيلُ فـقَدْ قدَّمَ كبـشًا من خيـرة أغنَامه، ولبنًا وزُبْدًا، ووضعَـها علَى قمَّة الجَبَل، وأخذَ يصلِّي للَّه لعلَّه يتقبَّلُ منه.

ويقدِّمُ قابيلُ - وهُوَ في قـمَّة غُروره وسُخْريَته - قَمـحًا من أَرْدَأ زراعَته، وكلُّه ثقـةٌ أنَّه الفـائزُ علَى أخِيـه، وحَتَّى لَوْ لَـمْ يَفُزْ فلـيسَ من حقِّ هابيلَ أن يتزوَّجَ إقليمَا.

وكانَت القرابينُ إذا قُـبلَتْ نزلَتْ نارٌ من السَّمَاء فأكَلَتْها، وإذَا لَمْ يتـقبَّلْها اللهُ لَم تَنزل النَّارُ، وأكَلَتْها السِّباعُ والطُّيورُ.

ويقبَلُ اللهُ قُربانَ هابيلَ ويظَلُّ قُربانُ قابيلَ على حَالته.

ويَسجدُ هابيلُ للَّه شُكرًا علَى كَرَمه، علَى حينِ اشتعلَتْ في قَلبِ قابيلَ نيرانُ الحقْد والكَراهيَة على أخيه.

لا مَفَرَّ إذَنْ من التَّسليم بإرادَةِ الأبِ التي أرادَها اللهُ جلَّ وعَلا، لكنْ هَلْ يُسلِّمُ قابيلُ المعاندُ بهذَا النَّصيب؟!

لقدْ أقبلَ الأبُ والأمُّ علَى ولَدهما هابيلَ يُهنِّئانه على قُربانه المَقْبُول، كَمَا أقبَلا علَى ولَدهما قابيلَ يُواسيَانه على عَدَم القَبُول.

إن الله ـ جلا وعلا ـ يقبلُ من المتقين الذين يخافونَه ويعملونَ بأوامرِه وينتهونَ عما نهى عنهُ.

لكنَّ قابيلَ لَمْ يَنتظرْ حَتَّى يستمعَ إلى هَذه المُواسَاة، بَلْ أسرعَ بعيدًا بعيدًا يطلقُ ساقَيْه للرِّيح وَهُوَ يصرُخُ:

- لَنْ أقبلَ هَذَا أبدًا، لَنْ أقبلَ.

لَمْ يفهَمْ هابيلُ تمامًا لَمَاذَا يَصرُخُ أخُوهُ؟! ولماذا يحتجُّ؟!

جَرَى هابيلُ وراءَ أخيه حتَّى أدركَه في مُنتصَف الجَبَل، فأخذَا يتحَاوران:

- ماذَا بكَ يَا أَخي؟ أأَنتَ حَزينٌ لأنَّ اللهَ تقبَّل منِّي ولَمْ يتقبَّلْ منكَ؟!

قالَ قابيلُ: مَا الذي تمتازُ به عنِّي حتَّى يُتَقَبَّلَ منكَ ولا يُتَقَبَّلَ منِّي؟!

قالَ هابيلُ: ربَّما لأنَّني أتَّقي اللهَ أكثرَ منكَ، واللهُ يتقبَّلُ من المتَّقينَ، ولو كُنْتَ تُراعي ربَّك لكانَ تقبَّلَ منكَ.

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾

[المائدة: ٢٧]

زَمَّ قابيلُ شفتَيْه في ضيقٍ وهُو يتمتمُ:

- سأقتلُكَ لو تَزَوَّجتَ إقليمَا، لن تَنَالَها.

قالَ هابيلُ مندهشًا:

- أتريدُ أن تَقْتُلَني يا قابيلُ؟! أتقتلُ أخاكَ الحبيبَ؟!

قالَ قابيلُ: إذَا أخذَ أحدٌ حَقِّي أقتلُه، حتَّى لَو كانَ أخي.

قالَ هابيلُ: لكنَّ اللهَ شاءَ، وهَذه إرادتُه يا أخي.

صاحَ قابيلُ: لَن يَشْفيَني شَيءٌ إذَا تزوَّجتَ أخْتي إلا التخلُّصُ منكَ.

وهنَا اقتربَ هابيلُ أكثرَ من أخيه، وقالَ في أسًى:

﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة : ٢٨].

كانَ من المتوقَّع أنْ يعودَ قابيلُ إلى رُشْدِه، ويُفيقَ من عِنَاده وأحقَادِه، لكنَّه لَم يفعلْ، بل زادَه هذا إصراراً على الشَّرِّ.

ويهربُ قابيلُ من وَجْه أخيه. لعلَّه كانَ يريدُ أنْ يفكِّرَ قليلاً، أو لعلَّه كانَ يريدُ أن يُحكمَ خُطَّتَه لقَتْل أخيه.

ويجدُ هابيلُ نفسَه وحيداً فوقَ الجَبَل، فيتَّجهُ إلى اللهِ داعيًا أن يَهديَ أخَاه إلى الصَّواب والحقِّ.

كانَ القمرُ بدراً في السَّماء، يمدُّ نُورَه فوقَ الجبَال العَاليةِ والوديَان الخَضْراء الممتدَّة.

جلسَ قابيلُ يستعيدُ أفكَارَه، ويترُكُ الشَّيطانَ يوسوسُ في نَفْسه ما يشاءُ له أن يوسوسَ.

- لا بدَّ أن أبي سيفعلُها، سيزوِّجُ هابيلَ وإقليما غداً؛ فقدْ كانَ ينتظرُ حتَّى يعرفَ نتيجةَ القُربان.

أنَا أعـرفُ أنَّ أبي وأمِّي يميلانِ إلى هابيـلَ أكثـرَ ممَّا يَميلان إليَّ، ومـا هَذا القُربانُ إلا حـجةٌ أرادَ أبي بهَا أن يبـرزَ حُبَّه لأخي، نَعَمْ، نَـعَمْ. لكنْ إلى مَتَى سأظلُّ أنا المَكروهَ في هَذه الأسْرَة، ويظلُّ هابيلُ موضعَ الحبِّ؟!

ويهـتفُ به الشَّـيطانُ: لا تَخْشَ شـيـئًا؛ لَـديَّ الخَلاصُ من هَذه الحَـيْـرة، وسأكونُ بجانبكَ في الوَقْت المناسب.

لقد التـقَى الشيطانُ بـأفكَار قابيلَ، فـغذَّى نوازعَ الشَّرِّ في دَاخـله، وكأنَّ قابيلَ كانَ يريدُ أن يطمئنَّ إلى مُنَاصَـرة أحَد لَه، حتَّى لَو كانَ ذلكَ الأَحَدُ هُو الشيطـانَ. وهاهوَ يطمئنُّ، فـلا داعيَ إذَنْ إلى مَزيد من التَّـفْكيرِ، ولـيَـعُدْ إلى البَيْت قبلَ أن يشعُرَ بغيَابه أحدٌ.

وفي اليَوم التَّـالي يعلنُ آدمُ زواجَ هابيلَ وإقليمَا، ويـباركُهُ الجمـيعُ، حتَّى قابيلُ نفسُه أقبلَ علَى أخيه وأخْته متظاهرًا بالسَّعَادة، مهنِّئًا إياهُما بالزَّواج.

كانَ لا بدَّ أن يفعلَ قابيلُ ذلكَ حتَّى لا يشكَّ أحدٌ في نيَّته.

وتمرُّ أيامٌ وشهـورٌ كانَتْ مملوءةً بالسَّعَـادة على العروسَين، وكـانَتْ ثقيلةً سوداءَ على قابيلَ.

إنَّ إقليمَا حاملٌ، وسوفَ تلدُ، وتزدَادُ سعادةُ الجَميع.

لقد اعتادَ قابيلُ أن يسألَ أخَاه هابيلَ كُلَّمَا خرجَا إلى الخَلاء عَن الزَّواج وعَن إقليما، فلا يملكُ هابيلُ إلا أن يحمدَ اللهَ على ما قسَمَه لَه، وعلَى ما رزَقَه من نعمة الحُبِّ والمَودَّة والسَّعَادَة.

ولَمْ يكُن هابيلُ يدركُ ما وراءَ أسْئلة أخيه المتكَرِّرة؛ فقدْ كانَ دائمَ الشُّكْر للَّه تعالَى.

أمَّا قابيلُ فَقَدْ كانَتْ إجاباتُ أخيه تزيدُ نيرانَ الحَسَد والشَّرِّ اشتعالاً عندَه، حتى جاءَ يومٌ بادَر قابيلُ، وسبقَ أخَاه إلى الخَلاء، وشَحَذَ مُدْيَتَه، وأخفَاها عَن عَين أخيه، وجلسَ في انتظَارِه.

ويعاودُ الشيطانُ وَسْوَسَتَه:

- هذَا هُو اليومُ المنتظَرُ، عليكَ أن تقتُلَ أخاكَ قبلَ أن يَفرحَ بما في بَطن زوجَته، وسوفَ تكونُ بعدَها الولَدَ المدلَّلَ الوَحيدَ، لأمِّك وأبيكَ، ويمكنُكَ أنْ تفعلَ ما تشاءُ دونَ أنْ يَحُولَ دونَ ذلكَ شيءٌ.

ويخطِّطُ الشيطانُ لقابيلَ كَيفَ يقتلُ أخَاه.

إنَّ قابيلَ يصعدُ تلكَ الشجرةَ العجوزَ التي يلتقيَان في ظلِّها دائمًا، ويَختفي تمامًا بين أوراقها، وهاهُوَ ينظرُ من علٍ إلى أسفَل الوَادي ليرَى شَبَحَ

أخيه يسرعُ بالصُّعود.

وها هو يهـدِّدُه بالقتـل أيضاً فـقال له أخـوه: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩]

وما هيَ إلا فتـرةٌ يسيرةٌ حتَّى نفَّـذَ قابيلُ ما أرادَ، فقتلَ أخَـاه هابيلَ. وبعدَ أن وقعَ ما وقعَ شـعرَ بالأسَى يعتـصرُ قلبَه، وأحـاطَ بنَفْسه الـندمُ القاتلُ علَى هَذه الجَريمة النَّكْراء.

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٣٠]

إنه الحسـدُ أولُ ذنب عُصِيَ اللهُ به في الجنة عندما حـسد إبليس آدمَ ولم يسجُد له، وأولُ ذنب عصي اللهُ به في الأرض عندما حسدَ قابيلُ آخاه هابيلَ فأدى به مع وسوسةِ الشيطانِ إلى ارتكاب ذنب عظيمٍ جداً.

ماذا يَصنعُ بجُثَّة أخيه؟

إنَّه في حَيْرة شَديدة؛ لَـمْ يَكُن يعلمُ أنَّ الموقفَ سيكونُ علَى هَذه الدَّرَجة من الصُّعُوبَة.

وإنَّ قابـيلَ لَفي حَيْـرَته وندَمه يكادُ يموتُ من هَوْل المَوْقف، وإذَا بغُـرابَين

يقتتِلان بالقُرب منه.

جلسَ قابيلُ يتأمَّلُ المشهدَ.. شيءٌ مَا مما يحـدُثُ يُشبهُ ما حدَثَ. ومَا هيَ إلا لحظاتٌ حتَّى قتلَ أحدُ الغُرابين الآخرَ.

إلى هذَا الحَدِّ يتشـابَهُ المشهَدان! فالنتيـجةُ واحدةٌ مَهْمَا كـانَت الأسبابُ! وينتظرُ قابيلُ ليرَى ماذَا سيفعَلُ هذَا الطائرُ الأحمقُ الضئيلُ بأخيه المَقْتُول.

لقَـدْ دارَ الغُرابُ حـولَ ضَحيَّـته مَـرتَّين، ثُم أخذَ يحـفُرُ الأرضَ بمنـقَاره وأظفَـاره، ويُخرجُ الرِّمـالَ من الحُفْـرَة، وبعـد أن اتسعَت الحـفرةُ أخـذَ يدفعُ الغُـرابَ المقتـولَ إليهـا، ثم أخذَ يُهـيلُ عليه الرِّمـالَ مرةً أُخْـرَى حتَّى سَـوَّى الأرضَ تمامًا فوقَه، ثُمَّ دارَ حَوْلَ الحُفْرة مَرتَّين، ثمَّ انطلقَ طائرًا في الفَضَاء.

كانَ مشهدًا مثيرًا من طَائرٍ أحمق.

وأدركَ قابيلُ كَمْ هو ضئيلٌ عاجزٌ حقيـرٌ، أكثرُ حمقًا حتَّى من هذَا الطَّائر الأسوَد الضَّعيف، فاستـشعرَ النَّدَمَ والحسْرةَ، وقالَ: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة: ٣١].

وفي الحَال يُسرعُ إلى حَفْرِ الأرْضِ.

ثُمَّ هَاهُوَ ذَا يُدحرجُ أخَاه حتَّى يُدخلَهُ الحُفرةَ، ثُم يُهيلُ فوقَه الرِّمالَ مَرَّةً أخْرَى، ويُسوِّي الأرضَ، ويجلسُ ليستريحَ بجَانبه من شدَّة التَّعَب والإرهَاقِ.

ولكنَّه يعيشُ في دوَّامَةٍ من الأسَى والألَم، وهكَذا تكُونُ حالُ الغَادرينَ!

ومنذُ حملَ قابيلُ سلاحَه لقَتْل أخيه والإنسانُ لا يكفُّ عَن الحقْد والحَسَد والبَغْضاء لأخيه الإنسَان، وتُصبحُ هَذه أولَ جَريمة في تَاريخ البشريَّة، وفاتحةً للشَّرِّ والصِّراعِ، فكلُّ جريمةِ قتلٍ تحصلُ أو حصلت على الأرض فعلى قابيل مثلُ الإثمِ والسيئاتِ التي على القاتلِ؛ لأنه أولُ من سنَّ القتلَ، فعليه وزرُها ووزرُ من عملَ بها إلى يومِ القيامةِ كما قالَ ﷺ: «لا تُقتَلُ نفسٌ ظلماً إلا كان على ابنِ آدمَ الأوَّلِ كِفْلٌ من دمها؛ لأنه أولُ من سنَّ القتل» رواه الإمام البخاري في صحيحه ٣٠٨٨ كتاب الأنبياء.

وقد قال الله سبحانه: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

ومنذُ أرشَدَ الغُرابُ قَابيلَ إلى طَريقة دَفْن المَوْتَى والناسُ يدفنونَ مَوْتاهم.

وتلكَ حكمَةُ اللَّه وقُدرتُه في خَلْقه، وآيَتُه في كَـوْنه! فسبحانَ الله خَالق كُلِّ شَيْء! لم يَخْلُقْ شيئًا عَبَثًا، بَلْ إنَّ كلَّ شَيء عندَه بمقدَارٍ.

obeikandl.com